المحاضرة الثانية: "المقدمة":التعريف بالكتاب، هيكله، وأهميته كعلم جديد ..

مقدمة:

في رحاب الفكر الإنساني، تبرز شخصية ابن خلدون كمنارة فكرية غيرت مجرى العلوم الاجتماعية والتاريخية. ومن أهم إسهاماته كتابه الشهير "المقدمة"، الذي يمثل مدخلاً علميًا ومنهجيًا لدراسة المجتمعات والبشرية عبر التاريخ. في هذه المحاضرة، سنتعرف على هذا الكتاب العظيم، نتناول هيكله ومضامينه الفكرية التي شقت طريقًا جديدًا في فهم العمران البشري والدولة والعصبية الاجتماعية، إضافة إلى أهمية هذه المقدمة في وضع أسس علم جديد يُعرف اليوم بعلم الاجتماع. سنبحر في تفاصيل هذا العمل الفريد لنفهم كيف استطاع ابن خلدون أن يؤسس لتحليل علمي واقعي للمجتمع والتاريخ بعيدًا عن الأساطير والروايات التقليدية.

سنتناول في هذه المحاضرة، بعون الله، هذا العمل الخالد: "مقدمة ابن خلدون". سنبدأ بالتعريف بالكتاب ومؤلفه، ثم ننتقل إلى تفكيك هيكله ومحتواه، لنختتم باستعراض أهميته البالغة بصفته علماً جديداً أرسى قواعده.

(1) التعريف بكتاب "المقدمة" ومؤلفه

أولاً: مؤلف المقدمة – عبد الرحمن بن خلدون (1332 – 1406م)

- **شخصيته** :لم يكن ابن خلدون منعزلاً في برجه العاجي، بل كان رجل دولة وعالماً وسياسياً وديبلوماسياً. عاش في فترة مضطربة من تاريخ المغرب والأندلس، وشغل مناصب سياسية رفيعة في بلاطات كل من تونس وفاس وغرناطة، قبل أن يستقر في قلعة بني سلامة بالجزائر ويكتب مؤلفه العظيم.
- **خبرته العملية** :هذه الخبرة العملية الغنية في شؤون الحكم والإدارة والاجتماع البشري كانت المادة الخام التي صاغ منها نظرياته، مما جعلها تنبض بالواقعية والبعد عن التجريد المثالي.

ثانياً: كتاب "المقدمة" – النشأة والسياق

- **الكتاب الأصلي"** :المقدمة" هي الجزء التمهيدي من كتاب ابن خلدون الضخم "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، والذي يُعرف اختصاراً بـ"تاريخ ابن خلدون."
- **الهدف من التأليف** :أراد ابن خلدون أن يكتب تاريخاً عالمياً، لكنه وجد أن المؤرخين الذين سبقوه يقعون في أخطاء منهجية جسيمة، كالتقليد وعدم التحقيق، والاعتماد على الروايات دون تمحيص، والجهل

بطبائع العمران وأحوال الاجتماع الإنساني. لذا، قرر أن يضع مقدمة منهجية تشرح القواعد الصحيحة لفهم التاريخ، وتكشف عن "السياق الخفي" للأحداث.

- **الفرادة :**ما بدأ كمقدمة تحذيرية من أخطاء المؤرخين، تحول إلى عمل مستقل هائل، أصبح أكثر شهرة وأهمية من الكتاب الأصلي نفسه.

(2) هيكل "المقدمة" ومحتواها: رحلة في علم العمران البشري

يمكن تقسيم هيكل المقدمة إلى ستة أقسام أو "فنون" رئيسية، كما حددها ابن خلدون نفسه:

القسم الأول: في العمران البشري وأصوله (المقدمة الأساسية للعلم الجديد)

- **علم العمران البشري :**يطرح هنا ابن خلدون مشروعه العلمي الجديد، معرِّفاً إياه بأنه "علم يعرف به أحوال العمران والاجتماع الإنساني، وما يعرض في طبيعة ذلك العمران من الأحوال."
- **أشكال العمران :**يميز بين شكلين رئيسيين للحياة الاجتماعية:

1. **العمران البدوي :**حياة البدو والبادية، بالخشونة وقوة العصبية وقلّة الحاجات.
2. **العمران الحضري :**حياة الحضر والمدن، بالرفاهية والتنعم وضعف العصبية وكثرة الحاجات.

- **أثر البيئة والمناخ :**يناقش تأثير الجغرافيا والمناخ على أخلاق الشعوب وألوانهم وطبائعهم.

القسم الثاني: في العمران البدوي والقبائل

- **العصبية :**هذا هو مفهوم ابن خلدون المحوري. يشرحها على أنها الرابطة النسبية أو القبلية التي تخلق التماسك والتضامن بين الجماعة، مما يمكنها من تحقيق السيادة والتملك. العصبية هي "المحرك" الرئيسي للتاريخ والسياسة في نظريته.
- **الدور الحضاري للبدو :**يرى أن الحضارات لا تنشأ إلا على أيدي جماعات ذات عصبية قوية (عادة من البدو)، الذين يغزون المدن المتحضرة فيقيمون دولة جديدة، ثم تذوب عصبيتهم تدريجياً في رفاهية الحضر، لتهاجمهم بعد ذلك جماعة بدوية جديدة ذات عصبية أقوى، وهكذا تدور "دورة الحضارة."

القسم الثالث: في الدولة والخلافة والملك

- **طبيعة الدولة** :يرى ابن خلدون أن الدولة كائن حي، لها دورة حياة طبيعية مثل الكائن الحي، تمر بمراحل: النشوء، القوة، الذروة، ثم الشيخوخة والانحلال. ويحدد عمر الدولة بثلاثة أجيال (جيل البداوة والقوة، جيل الترف والاستقرار، جيل التلف والانحلال).
- **أركان الدولة** :يحتاج قيام الدولة إلى:
  1. **العصبية** :القوة الدافعة والمساندة.
  2. **السلطان** :الحاكم والقائد.
  3. **المال** :لتمويل الجيش والإدارة.
- **الفرق بين الخلافة والملك** :يميز بين الخلافة (التي تقوم على الشريعة والنيابة عن صاحب الشرع) والملك الطبيعي (الذي يقوم على القوة والسياسة الدنيوية).

القسم الرابع: في العمران الحضري والمدن

- **نشوء المدن** :تنشأ المدن كمقر للدولة والحكم، وتزدهر بالعمران والاقتصاد.
- **سوسيولوجيا المدينة** :يحلل الحياة في المدن، من تقسيم العمل، وانتشار الصنائع، وارتفاع مستوى المعيشة، وما يصاحب ذلك من ترف وضعف في الأخلاق والعصبية.
- **الاقتصاد الحضري** :يناقش دور العرض والطلب في تحديد الأسعار، وأهمية العمل كمصدر للقيمة (وهي فكرة سبق بها المدرسة الكلاسيكية في الاقتصاد).

القسم الخامس: في الصنائع والمعاش والاقتصاد

- **نظرية القيمة والعمل** :يؤكد أن كسب المال وتحقيق الثروة يأتي من العمل البشري وتنمية الصنائع والتجارة، وليس من مجرد امتلاك الذهب والفضة.
- **تقسيم العمل** :يشرح كيف أن تطور المجتمعات يؤدي إلى تخصص الأفراد في مهن وصناعات مختلفة، مما يزيد من الإنتاجية والثروة الجماعية.

- **دور الدولة الاقتصادي** :يحذر من تدخل الدولة المفرط في الاقتصاد، وجباية الضرائب الباهظة، لأن ذلك يقتل الحافز لدى الأفراد ويؤدي إلى كساد الاقتصاد.

القسم السادس: في العلوم وطرق التعليم

- **علم اجتماع المعرفة** :يناقش نشأة العلوم وتطورها وانتشارها، ويربط ذلك بحالة العمران والحضارة. فالعلم نتاج الحضارة والرفاهية، وليس سبباً لها.

- **نظرية التلقي والتعليم** :يقدم نصائح تربوية رائدة، فينتقد أسلوب العنف والشدة في التعليم، ويؤكد على أهمية التدرج، وربط العلم بالواقع، والتكرار دون إملال.

(3) أهمية "المقدمة" كعلم جديد: إسهامات خالدة

هنا نصل إلى لب محاضرتنا: لماذا تعتبر "المقدمة" علماً جديداً؟

1 .تأسيس علم الاجتماع (علم العمران البشري):

- **الاستقلالية** :سبق ابن خلدون أوغست كونت (الذي أطلق مصطلح "سوسيولوجيا" في القرن التاسع عشر) بأكثر من أربعة قرون. لم يقدم فلسفة للتاريخ فحسب، بل قدم علماً مستقلاً يدرس قوانين المجتمع البشري وقواعده الثابتة.

- **المنهج العلمي** :طبق منهجاً استقرائياً استنباطياً، حيث استخلص القوانين العامة من ملاحظة الوقائع التاريخية والاجتماعية، ثم استخدم هذه القوانين لتحليل وتفسير الأحداث. هذا هو جوهر المنهج العلمي الحديث.

2 .وضع فلسفة للتاريخ قائمة على القوانين العلمية:

- تحول التاريخ عنده من سرد لحوادث الماضي إلى "علم" يبحث في الأسباب والعلل العميقة الكامنة وراء الأحداث. التاريخ ليس مجرد سرد، بل هو "نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها."

3 .تقديم مفاهيم تحليلية رائدة:

- **العصبية** :مفهوم مركزي لتحليل قوة الدولة وضعفها، وصراع القبائل، وصعود وسقوط الحضارات.

- **دورة الحضارة** :النموذج الخلدوني الذي يفسر ديناميكية صعود وسقوط الدول، وهو نموذج لا يزال يستخدم في التحليلات السياسية والاستراتيجية.
- **البداوة والحضارة** :التحليل السوسيولوجي المقارن بين نمطي الحياة.

4 .الريادة في مجال الاقتصاد:

- سبق آدم سميث في الحديث عن نظرية العمل كأساس للقيمة، وعن تقسيم العمل وأهميته في خلق الثروة.

5 .نقد المنهج التاريخي:

- وضع معايير نقدية صارمة لتحقيق الروايات التاريخية، مؤكداً على ضرورة عرض الخبر على طبائع العمران وقواعد السياسة، فما خالفها كان باطلاً.

إذن، يمكننا القول إن "مقدمة ابن خلدون" كانت:

- **ثورة منهجية** :في طريقة فهم التاريخ والمجتمع.
- **تأسيساً لعلم جديد** :هو علم الاجتماع أو "علم العمران البشري."
- **موسوعة معرفية** :شملت التاريخ، الاجتماع، السياسة، الاقتصاد، والتربية.
- **شهادة على عبقرية الفكر الإسلامي** :وقدرته على الإبداع والابتكار.

لم تكن "المقدمة" مجرد كتاب، بل كانت مشروعاً فكرياً شاملاً، حاول أن يكتشف القوانين الموضوعية التي تحكم مسيرة المجتمعات الإنسانية. ورغم مرور أكثر من ستة قرون على كتابتها، إلا أنها لا تزال تنبض بالحياة، تقدم لنا أدوات لفهم حاضرنا واستشراف مستقبلنا، مؤكدة أن في الاجتماع الإنساني سنناً وقوانين لا تحابي أحداً.